الوجود القبطى فى القدس
فى التاريخ الحديث والمعاصر

د . محمد عفيفى

أستاذ التاريخ الحديث ـ كلية الآداب

جامعة القاهرة

الوجود القبطى فى القدس
فى التاريخ الحديث والمعاصر

تركزت معظم الدراسات التى تعالج تاريخ الأقباط على دراسة تاريخهم فى مصر فقط ، بحكم الأصل التاريخى ، والكثافة السكانية ، والمركزية الدينية لكنيسة الكرازة المرقسية . ولم تخرج عن هذا إلا بعض الدراسات التى تعرضت لما سمى «بأقباط المهجر» فى أوروبا وأمريكا ، لاسيما مع بعض المواقف السياسية لهؤلاء أخيراً . وعلى العكس من ذلك لم يحظ ما يمكن أن نطلق عليهم «بأقباط الجوار» بالاهتمام الملحوظ .

وما نقصده «بأقباط الجوار» هو الوجود القبطى فى دول الجوار لمصر مثل فلسطين ، السودان ، الحبشة . وربما نالت الأخيرة بعض الاهتمام نظراً للعلاقة التاريخية بين الكنيستين القبطية والحبشية ، وتبعية الأخيرة للأولى إلى وقت قريب[١] . ولكن معظم الدراسات فى هذا الشأن تركزت إما على الصراع السياسى بين مصر والحبشة على مر التاريخ ، ووساطة الكنيسة القبطية أحياناً فى هذا الصراع ، أو الوجود «الكنسي» فى الحبشة . ولم يوجه اهتمام يذكر إلى «الأقباط» فى الحبشة . وينطبق نفس الشئ على فلسطين والسودان إذ اهتمت معظم الدراسات الخاصة بالوجود القبطى فى فلسطين على تتبع مظاهر المشكلة السياسية والدينية الخاصة بدير السلطان لاسيما فى القرن العشرين[٢] . وزاد فى الأمر منع الكنيسة القبطية الأقباط مؤخراً عن زيارة القدس ، حيث فسر ذلك على أنه «فقط» احتجاج على موقف السلطات الإسرائيلية من مشكلة الدير . ولم يبحث البعض أبعد من ذلك لتفسير موقف الكنيسة القبطية ، ولم يهتم كثيراً بتتبع «الأقباط» فى القدس وفى فلسطين[٣] . وكذلك الحال إلى حد كبير بالنسبة للسودان ، حيث هاجرت أعداد لا بأس بها من الأقباط إليه منذ فتح محمد على للسودان . ولكن الدراسات اهتمت فقط بالوجود «الكنسي» القبطى فى السودان ، ولم يوجه اهتمام حقيقي

لدراسة الأقباط فى السودان ، لاسيما مع ظهور مشكلة الجيل «الثاني» ، بل ومع اكتساب معظمهم للجنسية السودانية[٤] .

من هنا تحاول دراستنا الاهتمام برصد ما ترتب على الوجود القبطى فى القدس ، عبر العديد من القرون ، من فعاليات وأنشطة ومظاهر اجتماعية وسكانية واقتصادية .

على أية حال ، ترجع معظم الدراسات بداية الوجود القبطى فى القدس إلى الزيارة للأماكن المقدسة فى المدينة ، منذ اكتشاف الإمبراطورة هيلانة للصليب المقدس فى عام ٣٢٥م وتأسيسها لكنيسة القيامة ، ولا أدل على ذلك من اشتراك البطريرك القبطى أثناسيوس فى تدشين هذه الكنيسة مع بطريركى إنطاكية والقسطنطينية . وكذلك قصة القديسة مريم المصرية التى حضرت إلى القدس فى عام ٣٨٢م ، حيث استقرت هناك وذاع صيتها ، حتى إنه بعد وفاتها ، تم تشييد كنيسة على اسمها مجاورة لكنيسة القيامة[٥] .

واستمر الوجود القبطى فى القدس مع الفتح العربى لها . فقد نص كتاب الأمان للقدس المعروف بـ «العهدة العمرية» على ذكر الوجود القبطى فى القدس ضمن عهد الأمان لكافة الطوائف المسيحية فى المدينة المقدسة . واستمر بناء الكنائس والأديرة القبطية فى القدس بعد ذلك . ففى القرن التاسع الميلادى تم إنشاء كنيسة قبطية فى القدس عرفت بكنيسة المجدلانية . ولعل أشهر الأمثلة جميعاً هو دير السلطان ، الذى رغم التضارب فى نسبته إلى أحد السلاطين ، يعتبر من أشهر مظاهر الوجود الدينى للأقباط فى القدس نظراً للظروف الدراسية اللاحقة .

ويُعد أول حصر دقيق للكنائس القبطية فى القدس ، هو الحصر الذى سجله أبو المكارم فى تاريخه عن الكنائس فى عام ١٢٨١م ، إذ يذكر وجود هيكل داخل كنيسة القيامة ، وكنيسة باسم المجدلانية ، وكنيسة ثالثة هى التى دخلت فى دير السلطان[٦] .

إيبارشية الكرسى الأورشليمى للأقباط الأرثوذكس :

لعل أهم تحول فى تاريخ الوجود القبطى فى القدس حتى النصف الأول من القرن الثالث عشر الميلادى ، هو ما تم فى عصر البابا كيرلس الثالث بنشأة هذه الإيبارشية . فحتى ذلك الوقت كان الوجود القبطى ، ليس فى القدس فحسب بل فى الشام بأكمله ، تحت رعاية بطريرك إنطاكية . لكن البابا كيرلس الثالث خطا خطوة هامة فى هذا الشأن حيث أنشأ لأول مرة مطرانية قبطية للقدس والشام ، ورسم لها أحد الأساقفة الأقباط . وربما دفعه إلى اتخاذ هذه الخطوة التنافس بين كرسى إنطاكية والإسكندرية ، فضلاً عن هجرة بعض الأقباط من مصر ، واستقرارهم فى القدس وبعض المدن الشامية ، وحاجة هؤلاء إلى راعى قبطى لهم[٧] . ومنذ ذلك الوقت وحتى الآن أصبح لمطرانية القدس مركزاً مهماً فى الأكليروس القبطى .

وحتى القرن العشرين لم تكن إيبارشية الكرسى الأورشليمى القبطى مقصورة على القدس أو حتى الشام فحسب ، وإنما كان نفوذ هذا الكرسى فى مصر يمتد ليشمل القليوبية والشرقية والدقهلية والغربية ومحافظات السويس ودمياط وبور سعيد[٨] ، وإن خرجت هذه بعد ذلك فى أوقات متفرقة لتشكل وحدات مستقلة ، لاسيما مع تغير الأوضاع الإدارية للمطرانيات القبطية فى فترة لاحقة ، ولم يكن هذا هو التغير الجغرافى الإدارى الوحيد الذى طرأ على الكرسى الأورشليمى . إذ لعبت المتغيرات الاجتماعية والاقتصادية وهجرة بعض الأقباط مثلهم مثل المسلمين إلى بعض بلاد المشرق العربى بحثاً عن فرصة عمل أفضل ، إلى تغير فى نطاق هذا الكرسى الذى تغير اسمه ليصبح «إيبارشية الكرسى الأورشليمى والشرق الأدنى»[٩] . وحرصت الإيبارشية على بناء كنائس قبطية فى هذه البلاد ، لاسيما فى لبنان وبعض دول الخليج ، لتخدم الوجود القبطى فى هذه البلدان .

ولدينا وثيقة ترجع إلى القرن السابع عشر تحدد مهام مطران «الكرسى الأورشليمي» ، وهى «تقليد» صادر من البطريرك القبطى برسامة مطران الكرسى

الأورشليمى ، وتحديد مهامه وواجباته على النحو التالى : «رئيسا بالقيامة المعظمة والأماكن المقدسة ، والإثارات السيدية ، والبيع ، والديورة داخل القيامة المعظمة وخارجها ، المختصة بجماعة النصارى طائفة القبط بمدينة القدس الشريف» . ومن مهامه : «التكلم والتحدث فى إصلاح ما يتعلق بالقيامة وخدامها من الكهنة والشمامسة والحبش والزوار» ، وأيضاً «التحدث والنظر على موجود القيامة المقدسة والأماكن المقدسة وعلى وقوفاتها (الأوقاف) وتعلقاتها الداخلة فيها والخارجة عنها . وعليه حفظ ذلك وصونه وجمعه وحوزه كما يجب . ويسعى عليه وينميه ويثمره ، ولا يمكن أحد من التفريط ، ولا من إضاعة شئ منه ، إلا فى وجهه الذى ينبغى صرفه فيه . وليس لأحد أن يعمر منازل أو مساكن إلا بمعرفته ، وإن كان ضرورياً بحيث لا يخالفوه فيها ولا يردون له أمراً . . ويجب على الرئيس المذكور أن لا ينال من رزق الأماكن المقدسة إلا ما هو كفاف ، ولحياته قوام»[١٠] .

وتضن علينا المصادر كثيراً عن الحديث عن المهام الفعلية لمطران الكرسى الأورشليمى ، أو تفاصيل ما يمكن أن نسميه الحياة اليومية له . ولا يتوافر لدينا فى الحقيقة إلا تفاصيل حول سيرة حياة الأنبا باسيليوس مطران القدس فى النصف الثانى من القرن التاسع عشر ، وأيضاً الأنبا باسيليوس مطران القدس فى النصف الثانى من القرن العشرين[١١] . وفيهما يتضح ما يقوم به المطران من رعاية دينية لمطرانيته وجمع التبرعات ، فضلاً عن الحرص الشديد على ترميم الكنائس والأديرة . وإلى جانب هذا وذاك ، توضح سيرتهما ضرورة الحرص على حسن العلاقات بين المطران والسلطات السياسية والإدارية سواء فى القدس أو فى القاهرة لتسهيل الكثير من الأمور .

الزيارة الدينية (الحج) إلى القدس

ويرتبط بالوجود القبطى فى القدس ، الزيارة الدينية إلى القدس التى تعتبر فى الحقيقة من أهم أمنيات وأحلام القبطى . ويطلق على من يقوم بهذه الزيارة

«المقدس» وكان الأقباط يخرجون عادة إلى القدس فى شكل قافلة ذات موكب ، محملة بالمؤونة والزاد . وتخرج هذه القافلة من المطرية فى ضواحى القاهرة وتتجه شرقاً إلى الخانقاه السرياقوسية (الخانكة) لتأخذ الدرب السلطانى عبر سيناء إلى العريش ، ثم غزة ، إلى الرملة وأخيراً إلى القدس . وبالإضافة إلى المؤونة والزاد المصاحبة لقافلة الزيارة ، كانت ترسل أيضاً مؤونة أخرى عن طريق البحر . وتنقل هذه المؤونة من القاهرة إلى ميناء دمياط ، حيث تنقل بالبحر إلى يافا ، ومن هناك بالبر إلى القدس .

وفى بعض الأحيان وعند انقطاع الطريق البرى (الدرب السلطانى) نتيجة تمرد العربان ، كان الأقباط يلجأون إلى الطريق البحرى من دمياط إلى يافا ، ثم عن طريق البر من يافا إلى القدس(١٢) .

وفى القرن التاسع عشر ازدادت أهمية الطريق البحرى إلى القدس بالمقارنة بالطريق البرى ، ويرجع ذلك بطبيعة الحال إلى الاستقرار الأمنى فى شرق البحر المتوسط آنذاك ، مع توقف أعمال القرصنة ، فضلاً عن التطور فى وسائل النقل البحرى . وتعتبر سيرة حياة الأنبا باسيليوس خير مصدر فى هذا الشأن ، فعلى الرغم من الاستقرار الأمنى ، وسهولة المواصلات فى شرق البحر المتوسط ، كانت هناك العديد من الأخطار والمتاعب فى ميناء يافا ، إذ عاب هذا الميناء وجود الشعاب الكثيرة ، فضلاً عن بعد المسافة بين مرسى البواخر ورصيف الميناء ، حيث يتم نقل الركاب من البواخر إلى أرض الميناء عن طريق زوارق صغيرة . وقد أخذ الأنبا باسيليوس على نفسه تسهيل كافة المشاكل السابقة لتأمين حياة الزوار الأقباط(١٣) .

كما حرص الأنبا باسيليوس على شراء بعض الأراضى فى يافا وأقام عليها داراً للمطران وكنيسة ، وبعض الدور لإقامة الزائرين الأقباط فيها قبل انتقالهم إلى القدس . وقد اشتهرت المبانى القبطية فى يافا بروعة مبانيها وجمال حدائقها . وكانت تعرف عند مطلع القرن العشرين باسم «البيارة القبطية» نظراً للحدائق حولها(١٤) .

وضعفت أهمية الطريق البحرى إلى حد كبير بعد ذلك ، إذ فضل الزوار الأقباط استخدام خط السكك الحديدية إلى القدس . لكن هذا الطريق كان يتعرض أحياناً لبعض المتاعب فى أيام الأعياد والزيارة . حيث حفظت لنا وثائق قصر عابدين وثيقة مرسلة من الزوار الأقباط فى القدس إلى الديوان الملكى فى القاهرة ، يلتمسون فيها التدخل لإنقاذهم من التأخر فى القدس نتيجة اضطراب حركة القطارات . ولا تذكر الوثيقة أية تفاصيل عن هذا الأمر(١٥) .

ومن ناحية أخرى تذكر بعض المصادر التاريخية بعض الإشارات القليلة حول وجود نشاط تجارى بصحبة قافلة الزيارة إلى القدس . لكننا لا نملك التفاصيل حول هذه النقطة الهامة(١٦) . وهذا الأمر ليس بالغريب ، فحتى قافلة الحج المسلم المصرى إلى الحرمين ، ارتبط بها العديد من مظاهر النشاط الاقتصادى سواء على الطريق أو فى المدن المقدسة ذاتها .

القدس فى الأوقاف القبطية

مع وجود العديد من الكنائس القبطية فضلاً عن بعض الأديرة فى القدس ، ونتيجة للوازع الدينى ، إلى جانب الطبيعة الدينية والاجتماعية لنظام الوقف ، حفلت الوثائق القبطية بالعديد من حجج الأوقاف المرصودة على القدس . ولم يكن الوقف على الأماكن المقدسة فى القدس مقصوراً على أثرياء الأقباط ، بل كانت معظم الأوقاف القبطية على القدس مرصودة من جانب الطبقة الوسطى . من هنا شاهدنا العديد من حجج الوقف القبطى التى تشتمل على وقف عقارات صغيرة ، أو حتى جزء من عقار ، وهى ظاهرة واضحة فى الأوقاف القبطية .

واختلفت أوضاع الأوقاف القبطية ، فبعضها كان مرصوداً على الواقف ثم على ذريته على أن تؤول فى حالة انقطاع الذرية إلى الأماكن المقدسة فى القدس(١٧) . وبعضها الآخر يتم رصده على بعض الأديرة القبطية فى مصر ، وفى حالة تعذر الصرف على هذه الأديرة ، أو زوالها تؤول هذه الأوقاف إلى القدس(١٨) . كما كان

هناك بعض الأوقاف المرصودة مباشرة على القدس[١٩] .

وبصفة عامة كانت معظم الأوقاف القبطية المرصودة على القدس توضع تحت إشراف البابا القبطى فى القاهرة ، وينوب عنه المطران القبطى فى القدس . ولكن فى حالات نادرة وقف بعض الأقباط أوقافاً على الحرم القدسى بصفة عامة دون تخصيص لدير أو كنيسة معينة ، وفى هذه الحالة توضع هذه الأوقاف تحت إشراف «ناظر أوقاف الحرم القدسي» ، وهو من المسلمين[٢٠] .

واستعان الأقباط أحياناً ببعض كبار الموظفين السريان فى القدس لرعاية الأوقاف القبطية والشئون المدنية لطائفة الأقباط هناك . فعلى سبيل المثال فى عام ١٧٠٣ كان «المعلم إسحق القدسى السريانى ابن المعلم سالم الوكيل عن طائفة الأقباط بالقدس الشريف ، المباشر بخدمة الديوان بالقدس الشريف» ، وعندما عزله متولى القدس ، أرسل المطران القبطى فى القدس إلى البابا فى القاهرة يخبره بذلك ، وبضرورة اختيار وكيلاً جديداً[٢١] .

لكن هذا الوضع سيتغير إلى حد ما فى القرن التاسع عشر ، لاسيما مع حملة محمد على على الشام ، إذ سيتولى الأقباط بأنفسهم - غالباً - رعاية الأوقاف والممتلكات القبطية فى القدس ، والوكالة عنها أمام ولاة الأمور ، لاسيما مع تولى بعض الأقباط لوظائف إدارية فى القدس ، وازدياد استقرار بعض الأقباط فى المدينة[٢٢] .

ولا نملك معلومات تذكر عن تطور الأوقاف القبطية فى القدس . ففى النصف الثانى من القرن التاسع عشر يذكر البعض المجهودات الضخمة التى قام بها الأنبا باسيليوس مطران القدس فى تنظيم أوضاع الأوقاف القبطية . إذ يذكر توفيق إسكاروس أنه عثر بالبطريركية على سجل خاص به صور «حجج ومضابط وأوامر بأملاك الوقف بالقدس الشريف وارد للبطريكخانة بتصديق أنبا باسيليوس مطران القيامة»[٢٣] . وفى الحقيقة كان الدافع الأكبر وراء هذا الأمر اندلاع مشكلة دير

السلطان آنذاك والصراع بين الأقباط والأحباش عليه . وسيكون هذا الصراع سبباً أيضاً فى إعادة تنظيم الأوقاف القبطية فى القدس فى مطلع القرن العشرين . حيث تجددت المشكلة فى عام ١٩٠٨ ، مما دفع البطريرك كيرلس الخامس إلى تشكيل «وفد قبطى» من بعض المحامين بالإضافة إلى مراقب البطريكخانة للسفر إلى القدس للنظر فى أمر الأوقاف القبطية فى القدس ويافا ، والنزاع القبطى الحبشى على دير السلطان[٢٤] .

لكن يبدو أن إيرادات الأوقاف القبطية لم تعد كافية للوفاء بنفقات مطرانية القدس إذ سقطت المطرانية فى الكثير من الديون المالية . ففى عام ١٩٥٦ وبعد وفاة الأنبا ياكوبوس المطران القبطى للقدس ، أرسل البطريرك لجنة من القاهرة إلى القدس لفحص الأوضاع المادية للمطرانية . ولم نعثر فى المصادر القبطية على أرقام توضح طبيعة هذه الأوضاع ، إلا أن اللجنة وجدت المطرانية مثقلة بالديون ، وخزانة المطرانية خاوية عاجزة عن السداد . ودفع ذلك المطران الجديد الأنبا باسيليوس إلى إصدار نداءات إلى «سائر هيئات وأفراد الشعب القبطى الأرثوذكسي الكريم» للتبرع من أجل إنقاذ المطرانية من عثرتها المالية[٢٥] . وقامت المطرانية بإعادة جدولة ديونها ، وتسديدها على أقساط شهرية . وحتى عام ١٩٦٧ لم تكن المطرانية قد نجحت بعد فى مهمتها هذه .

ديموجرافيا الأقباط فى القدس

ومن النقاط الهامة المتعلقة بالوجود القبطى فى القدس مسألة الحجم العددى لهذا الوجود ، أو بمعنى آخر تعداد الأقباط فى القدس ، حتى نستطيع تقييم هذا الشأن وتطوره عبر العصور . إلا أنه فى الحقيقة لا يتوافر لدينا سوى بعض التقديرات من جانب بعض الرحالة أو بعض رجال الدين . وهى فى مجملها لا تعدو أن تكون سوى تقديرات جزافية لا تعطى لنا صورة حقيقية عن حجم الوجود القبطى وتطوره عبر القرون .

ففى عام ١٨١٧ يقدر أحد الرحالة الغربيين عدد الأقباط فى القدس بحوالى ٥٠ قبطياً . وفى عام ١٨٣٧ يحدثنا مصدر آخر عن وباء الكوليرا الذى عصف بالقدس آنذاك ، ويذكر أعداد من مات من الطوائف المسيحية بالقدس ، مقدراً عدد من راح من الأقباط فى هذا الوباء بسبعة أفراد . وفى عام ١٨٥٣ يقدر أحد الرحالة عدد الأقباط فى القدس بحوالى مائة شخص ، مما يوضح لنا أن الوجود القبطى من الناحية العددية لم يكن كبيراً إذا قارناه بأعداد بعض الطوائف المسيحية الأخرى . إذ يقدر المصدر عدد المسيحيين الروم بحوالى ألفين ، والكاثوليك بحوالى تسعمائة ، والأرمن ٣٥٠ فرداً . ومع ذلك تتفوق الجالية القبطية فى القدس من حيث العدد على بعض الجاليات المسيحية الأخرى ، إذ يقدر عدد السريان فى القدس آنذاك بحوالى عشرين ، ونفس الرقم بالنسبة للأحباش .

ويقدر الأنبا باسيليوس المطران القبطى للقدس عدد الأقباط فى كل فلسطين فى عام ١٩٤٨ بحوالى عشرة آلاف نسمة ، وهو رقم يبدو مبالغ فيه بعض الشئ . ويقدر مصدر أخر عدد الأقباط فى القدس فى خمسينيات القرن العشرين بحوالى خمسمائة نسمة . ويرى هذا المصدر أن هذا الرقم قد ارتفع ليصل إلى حوالى ألف نسمة فى عام ١٩٧٠[٢٦] . وكما لا نملك أرقاماً دقيقة حول مجمل أعداد الجالية القبطية فى القدس ، لا نملك ذلك أيضاً بالنسبة لأعداد الكهنة الأقباط فى القدس . ففى مطلع القرن العشرين كان هناك خمسة من الكهنة الأقباط فى القدس لخدمة خمس كنائس ، وثلاثة هياكل ، بالإضافة إلى ثلاثة كهنة فى يافا[٢٧] .

وظلت الخدمة الكنسية فى القدس مقصورة على الكهنة الأقباط ، دون السماح لإقامة راهبات قبطيات فى القدس ، وهو موقف عام للكنيسة القبطية تجاه إقامة أديرة للراهبات فى خارج مصر ، أو حتى فى خارج المدن الكبرى . وفى عام ١٩٥٩ طلبت بعض الراهبات من البطريركية السماح لهن بالذهاب والبقاء فى القدس للتعبد والخدمة ، لاسيما مع وجود راهبات من مذاهب مسيحية أخرى فى المدينة . ولم

تستجب البطريركية لهذا الطلب إلا فى عام ١٩٦٣ ، حينما تم افتتاح «دير السيدة العذراء للراهبات القبطيات»[٢٨] .

ومعظم المهاجرين الأقباط جاءوا إلى القدس للزيارة الدينية ، واستقر بعضهم هناك وهى ظاهرة نجدها فى كل المدن المقدسة التى تجتذب الزوار إليها . ولكن هناك معالم هامة ومحطات رئيسية فى تاريخ الهجرة إلى القدس ، حيث يرى البعض أن فترة حكم محمد على للشام ، على الرغم من قصرها ، ساهمت فى ازدياد وتأكيد الوجود القبطى فى القدس والشام بصفة عامة[٢٩] ، على الرغم من ضآلة حجم هذا الوجود . كما شهدت فترة الأربعينات من القرن الماضى موجة جديدة من هجرة بعض الأقباط إلى القدس[٣٠] . وحتى الآن ما تزال تعيش عشرات الأسر الفلسطينية التى تنحدر من أصول قبطية فى القدس ، ولعل أهم هذه الأسر عائلات حبش ، رزوق ، جدعون ، قبطى ، مناريوس ، مينا ، مرقص ، ترجمان[٣١] .

وقد اهتمت إحدى المجلات المتخصصة فى القبطيات بهذه الظاهرة ، وعالجتها فى أحد أعدادها ، وهى مشكلة الهوية لدى هؤلاء ، ولاسيما لدى الأجيال الجديدة من أبناء المهاجرين . فالكنيسة القبطية ترى أن هؤلاء يدخلون فى حظيرة الكنيسة ، ولابد أن تشملهم رعايتها[٣٢] ، ولابد عليهم من تطبيق تعاليم الكنيسة القبطية الأرثوذكسية فى الصلوات والأحوال الشخصية ، لاسيما مع مشاكل الزواج المختلط الذى ترفضه الكنيسة . لكن هؤلاء الأقباط لديهم وجهة نظر أخرى ، فهم يرون أن السلطات المصرية لا تعترف بهم لأنهم لا يملكون هويات مصرية ، وبالتالى لا حق لهم فى الجنسية المصرية . لاسيما أن معظم هؤلاء لم يهتموا بالاحتفاظ بجوازات السفر المصرية ، أو حتى تجديدها ، لأسباب شخصية ، أو أمنية ، أو لظروف الحرب ، بالنسبة للمستقرين فى داخل إسرائيل بعد ١٩٤٨ ، أو حتى فى الضفة الغربية والقدس القديمة بعد ١٩٦٧ . كما انقطعت صلات هؤلاء إلى حد كبير بأقاربهم فى مصر . وحمل هؤلاء فى إسرائيل هويات إسرائيلية ، أو فى الضفة الغربية

وثيقة سفر أردنية مع بطاقة شخصية تصدرها السلطات الإسرائيلية للفلسطينيين[٣٣] . وتشعر الأجيال الجديدة أنهم فلسطينيون أكثر من كونهم مصريين ، فهم يتكلمون باللهجة الفلسطينية ، كما هاجر الكثير من هؤلاء إلى كندا وأستراليا[٣٤] .

المنشئات القبطية المدنية فى القدس

ترتب على الوجود القبطى فى القدس بعض المنشئات ذات الطابع المدنى ، ولعل أشهر هذه الأمثلة جميعاً المدارس القبطية فى القدس ، إذ أنشأت البطريركية فى عام ١٩٤٧ الكلية الأنطونية للبنين . ويرجع إنشاء هذه الكلية إلى الازدياد النسبى للأقباط فى القدس ، فضلاً عن التنافس بين الكنائس المسيحية المختلفة فى القدس على تقديم الخدمات الدينية والاجتماعية ، ولا أدل على ذلك من أن الكلية فتحت أبوابها لأبناء الطوائف الأخرى . وفى فترة تالية تم إنشاء كلية الشهيدة دميانة للبنات . وتقوم هذه الكليات بتقديم الخدمات التعليمية حتى الحصول على شهادة الدراسة الثانوية .

والالتحاق بهذه المدارس ليس مقصوراً على أبناء الأقباط أو حتى المسيحيين وإنما فتح بعد ذلك للمسلمين أيضاً . ودأبت وزارة التربية والتعليم فى مصر على إرسال بعثة تعليمية من المدرسين المصريين للتدريس فيها . كما تقوم الراهبات القبطيات المؤهلات بالتدريس أيضاً فى كلية الشهيدة دميانة للبنات . وبصفة عامة يسير المنهج الدراسى والنظام التعليمى وفقاً للنظام الأردنى ، ولكن يجوز أحياناً أن يتقدم بعض هؤلاء الطلاب للامتحان للثانوية العامة المصرية ولكن بترتيبات خاصة تقام مع وزارة التعليم المصرية[٣٥] .

كما أنشأت البطريركية أيضاً فى عام ١٩٦٦ ملجأ للأيتام ، بدأ العدد فيه بحوالى ١٨ ولداً ، إلى أن وصل إلى ثلاثين . ويقدم لهؤلاء الخدمات الاجتماعية والتعليمية والصحية ، ومعظم هؤلاء الأولاد من الأقباط .

ومن المؤسسات القبطية ذات الطابع المدنى ، وإن ارتبطت بشكل أو بآخر

بالناحية الدينية ، إنشاء جمعية خيرية اجتماعية لرعاية الوجود القبطى فى القدس . ففى عام ١٩٤٤ تأسست فى القاهرة «رابطة القدس للأقباط الأرثوذكس» . ورسمت الرابطة أهدافها فى الحفاظ على تراث الأقباط فى القدس ، ومساعدة اللاجئين الأقباط سواء بعد ١٩٤٨ ، أو بعد ١٩٦٧ ، إلى جانب تيسير إجراءات الزيارة المقدسة إلى القدس ، هذا فضلاً عن المساهمة المادية فى تدعيم الكنائس والأديرة والمدارس القبطية . كما لعبت الرابطة دوراً هاماً فى جمع التبرعات لصالح المؤسسات القبطية فى القدس ، إلى الحد الذى دفع الأنبا باسيليوس فى ندائه ـ قبل ١٩٦٧ ـ لسداد ديون بطريركية الأقباط فى القدس إلى الاعتماد على رابطة القدس لجمع التبرعات . وأصدرت الرابطة إيصالات خاصة بهذا الشأن[٣٦] .

كما حرصت الرابطة منذ نشأتها - وحتى فى سنوات توقف الزيارة بسبب الحروب - على إجراء قرعة سنوية بين الأعضاء ، ومن يفوز بالقرعة يذهب مجاناً إلى القدس . ومن الطريف أن هذه القرعة السنوية ما تزال تجرى حتى فى سنوات منع الكنيسة القبطية الأقباط عن الذهاب إلى القدس . إذ تعلن الرابطة نتيجة القرعة ، على أن يذهب هؤلاء إلى القدس بعد رفع الحظر المفروض على ذهاب الأقباط للقدس .

وعملت الرابطة على إصدار العديد من النداءات والمطبوعات الإرشادية إلى جانب مجلة دورية تصدر باسم الرابطة . واهتمت الرابطة بإنشاء ملجأ الأيتام فى القدس ، وجمع الإسهامات المادية والعينية لهم وإرسالها إلى القدس . واتخذت الرابطة موقفاً حاسماً من مسألة القدس ، إذ رفعت الرابطة شعاراً وهو «إن نسيناك يا أورشليم تنسى يميني»[٣٧] .

الدولة والأقباط والقدس

من الصعوبة بمكان تتبع علاقة الدولة فى مصر بمسألة الأقباط والقدس . وربما يرجع ذلك إلى أسباب خاصة بالسيادة السياسية ، ووقوع القدس خارج إطار السيادة

المصرية ، فضلاً عن التنافس الدائم مع السلطة السياسية المسيطرة على القدس ، سواء كان والى دمشق فى العصر العثمانى ، أو السلطة الأردنية بعد ١٩٤٨ ، أو سلطات الاحتلال الإسرائيلي بعد ١٩٦٧ . ولا نلاحظ تدخلاً مباشراً من جانب الدولة فى مصر فى مسألة الأقباط والقدس إلا فى مسألة دير السلطان والعلاقات المصرية الحبشية والدور الذى لعبته الكنيسة القبطية فى هذا الشأن منذ النصف الثانى من القرن التاسع عشر بالنسبة للتاريخ الحديث .

على أية حال لانعدم وجود إشارات متفرقة ومتناثرة عبر السنين حول «الاهتمام النسبي» للدولة بالمسألة محل الدراسة . ففى العصر العثمانى تذكر لنا المصادر القبطية أنه مع تمرد العربان على طول «الدرب السلطاني» وهو الطريق البرى من مصر إلى القدس ، أخبرت السلطات فى مصر الأقباط بإغلاق هذا الطريق واستحالة خروج قافلة الزيارة القبطية إلى القدس . ومع نجاح السلطات فى تهدئة العربان تم فتح الطريق مرة أخرى وأخبر الأقباط بذلك ، حيث خرجت قافلة الزيارة القبطية وكان على رأسها هذه المرة البابا القبطى ، احتفالاً بإعادة افتتاح الطريق . ويرجح أنه كانت هناك ضريبة تفرض على الزائرين الأقباط السالكين للدرب السلطانى فى نظير نوع من الحماية لهم(٣٨) .

وفى عهد محمد على احتاجت الكنائس والأديرة القبطية فى القدس إلى الترميم . من هنا تدخل بعض كبار الموظفين الأقباط لديه فاستصدروا منه رسالة إلى والى دمشق ، بالسماح للأقباط بإجراء الترميمات اللازمة . وذهب هؤلاء إلى والى دمشق الذى أصدر لهم فرماناً بالتعمير ، وتم إثبات ذلك أمام قاضى القدس ، حتى تسمح السلطات المحلية بالترميم . وبالفعل تم ترميم معظم الكنائس والأديرة القبطية آنذاك .

وتذكر المصادر القبطية حدوث بعض المعجزات فى أثناء فترة الحكم المصرى للشام فى عهد محمد على ، حيث شارك إبراهيم باشا - ابن محمد على - فى

الاحتفالات المسيحية فى القدس ، وحضر معه البابا القبطى بطرس الجاولى فى يوم سبت النور ، حيث خرج النور - كما تذكر المصادر - من قبر السيد المسيح[٣٩] .

وفى العهد الملكى - وكما مر بنا - أرسل الزوار الأقباط من القدس برقية إلى الديوان الملكى فى القاهرة يلتمسون فيها التدخل لحل مشكلة عودتهم إلى القاهرة ، بعد تعطل وازدحام خطوط السكك الحديدية فى القدس[٤٠] . ولا ندرى ما هى الإجراءات التى اتخذها الديوان الملكى لمعالجة هذا الأمر .

وفى العهد الجمهورى قدم جمال عبد الناصر فى عام ١٩٥٩ تبرعاً قدره خمسة آلاف جنيه مساهمة فى ترميم البطريركية القبطية بالقدس[٤١] . كما قدمت وزارة التعليم فى مصر بعثة من المدرسين للخدمة فى المدارس القبطية بالقدس ، وتسهيل إجراءات المتقدمين لنيل الثانوية العامة على النظام المصرى .

وهكذا لا نرى سياسة عامة وثابتة تتعلق بمسألة الوجود القبطى فى القدس ، إلا فيما يتعلق بمشكلة دير السلطان ، نظراً لتأثيرها على السياسة الخارجية المصرية ، سواء فيما يتعلق بالعلاقات المصرية الحبشية قبل ذلك ، أو العلاقات المصرية الأردنية فى فترة حرجة من أطوارها ، وأخيراً العلاقات المصرية الإسرائيلية بتقلباتها .

الكنيسة المصرية والاتجاه العروبى بالنسبة لمشكلة القدس

تعقدت مشكلة دير السلطان تحت الاحتلال الإسرائيلي للقدس إذ عاد الرهبان الأحباش إلى خطف مفتاح الدير من الأقباط ، وثارت مشكلة كبرى وتدخلت سلطات الاحتلال الإسرائيلى إلى جانب الأحباش . ودفع ذلك بالمطران القبطى باسيليوس إلى رفع قضية أمام المحكمة العليا فى إسرائيل ، ولكن السلطات الإسرائيلية اتخذت موقفاً آخر ، ليس هنا سبيل التحدث عنه .

ومع معاهدة السلام المصرية الإسرائيلية ، وبدء عمليات التطبيع ، خرجت

الكنيسة القبطية والبابا شنودة على وجه الخصوص بالقرار الشهير بمنع الزيارة إلى القدس ، والحرمان الدينى لأى قبطى يخالف هذا القرار ، وقطعه من الكنيسة . وفسر ذلك الأمر على أنه احتجاج من جانب الكنيسة على الموقف الإسرائيلي من مشكلة دير السلطان . ومع أهمية مشكلة دير السلطان بالنسبة للكنيسة ، ومع بقاء هذه المشكلة ضمن المشاكل المعلقة بين الإدارة المصرية والإسرائيلية ، إلا أنه من الصعب تفسير موقف الكنيسة السابق على ضوء مشكلة دير السلطان فقط ، فالمسألة أعمق من ذلك ، إذ إنها تتعلق بحرص الكنيسة القبطية على تأكيد هويتها الوطنية والعربية . ففى عيد الميلاد عام ١٩٥٩ أصدر البابا كيرلس السادس نداءً إلى العالم بشأن القدس ، أعلن فيه منع الحج إلى القدس «عبرنا عن احتجاجنا على هذا الاحتلال بمقاطعة الحج إلى الأماكن المقدسة ، فلم نسمح به ، واكتفينا بالصلوات والطقوس الدينية»(٤٢) .

وبعد عدوان ١٩٦٧ أصدر كل من الشيخ حسن مأمون شيخ الجامع الأزهر والبابا كيرلس السادس فى ٥ يوليو ١٩٦٧ بياناً مشتركاً كان أهم ما فيه ما يتعلق بأوضاع القدس : «نرفض رفضاً باتاً بكلمة موحدة فكرة تغيير الوضع القائم قبل العدوان الغاشم ، كما نرفض تدويل القدس ، لأن هذه المدينة - فوق أنها بلد المقدسات الإسلامية والمسيحية - فإنها جزء من جسم الدولة العربية ، فيكون التغيير أو التدويل امتداداً لهذا الاعتداء الأثيم على الأمة العربية»(٤٣) .

ولأن مسألة القدس هى مسألة تاريخية ، استخدم فيها التاريخ كل من الطرفين الإسرائيلى والعربى ، أعلنت الكنيسة عروبة القدس تاريخياً : «لم يكن دخول الخليفة عمر إلى القدس من أعمال الغزو ، ولكن عن طريق التسليم . وقد أجمع مؤرخو ذلك العصر على أن المسيحيين فى فلسطين ، وسوريا قد استقبلوا العرب استقبال المحررين لهم ، مثل إخوانهم فى مصر فيما بعد»(٤٤) .

خاتمة : تدهور الوجود القبطى تحت الاحتلال الاسرائيلى

أضعفت فترة الاحتلال الإسرائيلى من شأن الوجود القبطى فى القدس ، إذ انقطعت إلى حد كبير العلاقات بين الأقباط والقدس والقاهرة ، وانخفض بشدة عدد الرهبان الأقباط فى الأديرة والكنائس القبطية هناك ، إلى الحد الذى أدى بمطران القدس إلى إرسال استغاثة إلى البابا شنودة الثالث - بعد معاهدة السلام- بضرورة رسامة بعض الرهبان والشمامسة فى هذه الكنائس والأديرة ، من أجل إعادة الحياة إليها من جديد(٤٥) .

وينطبق نفس الشئ على المدارس القبطية فى القدس ، لا سيما مع عدم وصول التبرعات المالية اللازمة ، وتوقف وصول البعثة التعليمية المصرية إليها . من هنا تم تسوية هذا الأمر بالاتفاق بين الكنيسة المصرية ووزارة الخارجية المصرية وبالتعاون مع وزارة التعليم المصرية . وتوقف أيضاً نشاط الملاجئ القبطية فى القدس ، بل وتم إغلاقها فى فترة لاحقة نتيجة الأزمة المالية التى أحاطت ببطريركية الأقباط الأرثوذكس فى القدس(٤٦) .

الهوامش

(١) زاهر رياض : كنيسة الإسكندرية فى أفريقيا ، القاهرة ١٩٦٢ .

(٢) جرجس فيلوثاوس : أملاك القبط فى القدس الشريف ، القاهرة ١٩٢٤ ، وأنتونى سوريال : دير السلطان ، القاهرة ١٩٩١ ، وأيضاً يوسف سعد : دير السلطان ، القاهرة ١٩٦٢ .

(٣) ديمترى رزق : قصة الأقباط فى الأراضى المقدسة ، القاهرة ١٩٦٧ .

(٤) زاهر رياض : المسيحيون والقومية المصرية ، القاهرة د .ت . وانظر أيضاً عادل توفيق عبد النور : المشاركة السياسية للسودانيين الأقباط فى الانتخابات عام ١٩٨٦ ، الخرطوم ١٩٨٧ .

(٥) ساويرس بن المقفع : تاريخ البطاركة ، طبعة معهد الدراسات القبطية ، الجزء الأول ، القاهرة د .ت . ص٦٣,٧٢ .

(٦) ديمترى رزق : المرجع السابق ، ص٢٣,٢٤ .

(٧) كان مطران دمياط القبطى يأتى من مصر إلى القدس قبيل عيد الميلاد ، ويبقى حتى ما بعد عيد القيامة ليترأس الصلوات الخاصة بالعيدين . عن إنشاء الإيبارشية القبطية للكرسى الأورشليمى . انظر ساويرس بن المقفع ، المصدر السابق ، الجزء الثالث .

(٨) توفيق إسكاروس : نوابغ الاقباط ومشاهيرهم في القرن التاسع عشر ، جـ٢ ، القاهرة ١٩١٣ ، ص ٢٠٢ . وكان لإيبارشية الكرسى الأورشليمى مركزاً آخر فى مصر فى مدينة المنصورة ، انظر نفسه ص ٢١٠ .

(٩) بطريركية الكرسى الأورشليمى والشرق الأدنى للأقباط الأرثوذكس بالقدس : إيبارشية الكرسى الأورشليمى والشرق الأدنى فى سبعة أعوام ١٩٥٩-١٩٦٧ ، القدس ١٩٦٧ ، ص١٩ ، ٣١,٣٢ .

(١٠) المتحف القبطى بالقاهرة ، وثيقة رقم ٥٧٤٦ تقليد صادر من البابا مرقس فى عام ١٦٠٤ .

(١١) انظر توفيق إسكاروس : المرجع السابق ص١٧٩-٢٩٧ ، وأيضاً بطريركية الكرسى الأورشليمى : المرجع السابق ص١٨-٢٢ .

(١٢) المتحف القبطى بالقاهرة ، تاريخ عمل الميرون ، مخطوط رقم ١٢٨ طقس ، ورقة ٤٠ب .

(١٣) توفيق إسكاروس : المرجع السابق ص ٢٦٤,٢٦٥ .

(١٤) نفسه : ص ٢٢٩ ، ٢٣٠ .

(١٥) دار الوثائق القومية ، إلتماسات عابدين محفظه ٥٤١ بدون تاريخ .

(١٦) المتحف القبطى بالقاهرة ، مخطوط ١٢٨ طقس ، تاريخ عمل الميرون ورقة ٤٠ ب .

(١٧) أرشيف المحاكم الشرعية بالقاهرة ، محكمة باب الشعرية ، سجل ٦٢٦ ، صفحة ٢٥٠ ، مادة ٥٩٥ .

(١٨) بطريركية الأقباط الأرثوذكس بالقاهرة ، أزبكية محفظة ١٢ ، وثيقة ٢ .

(١٩) بطريركية ، السيدة زينب محفظة ١ ، وثيقة ٣٤ .

(٢٠) بطريركية ، الازبكية محفظة ١٢ ، وثيقة ٢ .

(٢١) المتحف القبطى ، مخطوط رقم١٢٨ ، ورقة ٤ .

(٢٢) ديمترى رزق : المرجع السابق ص٦٥ ، ٦ . كما لعب الكتاب الأقباط المرافقين لحملة إبراهيم

باشا على الشام دوراً هاماً فى تنمية ورعاية الأوقاف القبطية في القدس ، انظر إسكاروس : المرجع السابق ص ٢٢١ .

(٢٣) إسكاروس : المرجع السابق ، ص٢٢٦ .

(٢٤) نفسه ص ٢٢١ .

(٢٥) بطريركية الكرسى الأورشليمى : المصدر السابق ص٤٤,٤٥ .

(٢٦) انظر بصفة عامة ميخائيل مكسى : القدس عبر التاريخ ، الجيزة ١٩٧١ ، ص١٢٤ ، وأيضا بطريركية الكرسى الأورشليمى :المصدر السابق ، ص٨ .

(٢٧) إسكاروس : المرجع السابق ، ص٢٢٦ .

(٢٨) بطريركية الكرسى الأورشليمى : المصدر السابق ص٢٢ .

(٢٩) إسكاروس : المرجع السابق ، ص٢٢١ .

(٣٠) Le Monde Copte, Novembre 1993, p. 86.

(٣١) تم استقصاء أسماء هذه العائلات من مقابلة مع القس زكريا الذى خدم فى القدس مؤخراً ، وأيضاً مع الشماس شفيق الشماسى الخاص بالمطران الراحل .

(٣٢) انظر عن ذلك بطريركية الكرسى الأورشليمى : المصدر السابق بصفة عامة .

(٣٣) المدن التى يتركز فيها أصحاب الأصول القبطية هى القدس ، بيت لحم ، رام الله ، أريحا ، يافا ، الناصرة فضلاً عن ضواحى القدس .

(٣٤) Le Monde Copte, Novembre 1993, p.88.

(٣٥) للمزيد من المعلومات عن المدارس القبطية فى القدس انظر :

بطريركية الكرسى الأورشليمى : المصدر السابق ص٢٠ ، ٣٥ وأيضاً Le Monde Copte, No-vembre 1993 p.86.

(٣٦) بطريركية الكرسى الأورشليمى : المصدر السبق ، ص٤٥,٤٧ .

(٣٧) إيريس حبيب المصرى : قصة الكنيسة القبطية ، جزء٦ ، القاهرة ١٩٨٥ ، ص٢٣٣ .

(٣٨) المتحف القبطى بالقاهرة ، مخطوط ١٢٨ طقس ، ورقة ٤٠ وما بعدها .

(٣٩) إيريس المصرى : المرجع السابق جزء ٤ ، القاهرة ١٩٨٦ ، ص٢٦٨ ، ٢٦٩ .

(٤٠) دار الوثائق القومية بالقاهرة ، التماسات عابدين محفظة ٥٤١ .

(٤١) بطريركية الكرسى الأورشليمى ، المصدر السابق ، ص١٠ .

(٤٢) الأنبا غريغوريوس (إعداد) ، وثائق للتاريخ ، الكنيسة وقضايا الوطن والدولة والشرق الأوسط ، الجزء الأول ، القاهرة ١٩٧٥ ، ص٨,٩ .

(٤٣) نفسه ، ص ١٩٩ .

(٤٤) نفسه ، الجزء الرابع ، القاهرة ١٩٩٢ ، ص١٥٧ .

(٤٥) انظر أعداد عيدى الميلاد والقيامة لمجلة رابطة القدس أعوام ١٩٨٥ ، ١٩٨٦ .

(٤٦) مقابلة شخصية فى عام ١٩٩٤ مع القس زكريا حول تجربته فى الخدمة فى القدس .